"نايبول" : الغربة والأمل

د . سامي مسلم *

عندما أعلنت الأكاديمية السويدية في نهاية العام الماضي أنّ الحاصل على جائزة نوبل للآداب للعام 2001 هو السيد فيديادار سوراجبراساد نايبول، الكاتب البريطاني الشهير من أصل هندي، والمولود في ترينيداد العام 1932، لم يفاجئ النبأ المهتمين بالأدب في العالم، فهذه المنطقة، أي منطقة الكاريبي، المعروفة، أيضاً، باسم «وست أنديز»، أعطت العالم، وبالتحديد الأدب العالمي، مجموعة متميزة من الأسماء اللامعة، التي شكّلت معالم أدبية وثورية في القرن العشرين. من هؤلاء على سبيل المثال، لا الحصر، ايميه فيرناند سيزار، فرانس فانون، والشاعر ديريك التون والكوت، الحائز على جائزة نوبل للآداب للعام 1992.

لذلك، لا غرابة أن يخرج من هذه البقعة الجميلة والخلاّبة من العالم من حيث الطبيعة، ومن حيث تعدد واختلاط الثقافات والأعراق، هذا العدد المهم من الأدباء العالميين، بمن فيهم ف. س. نايبول، رغم الفوارق المهمة والمميّزة بينهم، إن كانت فوارق أدبية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية.

لقد رسّخ ف. س. نايبول، الهندي الأصل، القادم من جزيرة ترينيداد في البحر الكاريبي، اسمه بقوة في عالم الأدب من خلال رواياته وقصصه، ومن خلال كتبه غير القصصية الأخرى في الرحلات والتاريخ. وقد بلغ عدد هذه الكتب حتى الآن (26) كتاباً، منها ثلاثة عشر قصة ورواية أو قصة صغيرة، وثلاثة عشر كتاباً غير قصصي.

ف. س. نايبول هو الأشهر في عائلته في عالم الأدب، فقد كان والده صحافياً محلياً معروفاً في ترينيداد، وهناك أصدر روايته الوحيدة بعنوان : «مغامرات غوروديفا وقصص أخرى». لكن أهميته تكمن في التأثير الكبير الذي تركه على ابنه «فيدو» أو «فيديا» كما يسمّى ف. س. نايبول في البيت، من حيث تكوينه الأدبي وحثّه على أن يصبح كاتباً. وتسجّل المراسلات بين الوالد وابنه هذا التأثير بوضوح في «رسائل بين أب وابنه» (1998). وسار الشقيق الأصغر «شيفا» (1945–1985) على خطى والده وشقيقه الأكبر «فيدو» ليصبح كاتباً مشهوراً بعد أن تخصص بالدراسات الصينية في جامعة أوكسفورد، وعمل بعد تخرجه،

صحافياً مختصّاً بالرحلات في صحيفة سبيكتيتور (*Spectator*) البريطانية، لكنّه توفي وهو في سن الأربعين بنوبة قلبية، فأسست له الصحيفة البريطانية جائزة باسمه لأفضل مقال صحافي في الرحلات يكتبه كاتب دون سنّ الخامسة والثلاثين.

عند إعلان الأكاديمية السويدية عن فوز ف. س. نايبول بجائزة نوبل، كان هذا الكاتب قد حصل على أهم الجوائز الأدبية المعروفة في بريطانيا؛ في العام 1957 حصل على جائزة (لوالان ريس التذكارية) عن روايته الأولى : «المدلك الصوفي»، وفي العام 1959 حصل على جائزة (سومرست موم) عن روايته : «شارع ميغيل» التي هي أشبه بسيرة ذاتية عن الفترة التي عاشها في ترينيداد ثم غادرها إلى لندن.

وبعد أن أصدر في العام 1963 روايته : «السيد ستون ومرافق الفارس» ، حصل على جائزة (هوتورندون)، وفي العام 1967 حصل على جائزة (سميث) بعد أن أصدر رواية : «الرجل التميمي»، أي المحاكي والمُقلد. وفي العام 1971 منح جائزة (بووكر) على روايته : «في دولة حرة». وفي العام 1993 كان أول من حصل على جائزة (ديفيد كوهن للآداب) وذلك عن «الإنجازات الأدبية التي حققها كاتب بريطاني على قيد الحياة». وقد سمّته ملكة بريطانيا في العام 1990 فارساً «للخدمات التي قدّمها للآداب»، وبالتالي أصبح أسمه السير ف. س. نايبول .

قد تكون الانتقادات التي وُجِّهت له في العالم العربي هي الوحيدة التي صدرت عند الإعلان عن فوزه بجائزة نوبل. ولم تكن هذه الاعتراضات لأسباب أدبية وإنّما لأسباب سياسية، فالسير نايبول عُرف بنقده للإسلام والمسلمين. واتهم بامتلاك نظرة ضيّقة وانتقائية عن الإسلام والمسلمين.

لقد كان نايبول منذ شبابه، وقبل أن يغادر بورت أوف سبين عاصمة ترينيداد، واثقاً من خيارين أمامه في الحياة، إما النجاح الباهر أو الفشل الذريع. يقول في رسالة إلى شقيقته الكبرى «كملا» كتبها في 24 نوفمبر 1949 «لهذا السبب، أعتقد أنّني سأحقق نجاحاً عظيماً أو فشلاً غير مسموع به». (رسائل بين أب وأبنه، 1999، ص9)، وكان نايبول قد طافت شهرته الآفاق إثر إصداره أشهر رواية له : «بيت للسيد بسواس» (1961). أما روايته الوحيدة المترجمة إلى اللغة العربية فهي : «عند منعطف النهر» التي صدرت عن دار الهلال المصرية.

وقد نشرت في الصحف اليومية الفلسطينية عدة مقالات لمناسبة حصوله على جائزة نوبل كانت بقلم أحمد دحبور في صحيفة الحياة الجديدة بتاريخ 2001/10/17 بعنوان : «نايبول يقطف نوبل عند منعطف النهر»، ومقالة خليل السواحري : «جائزة الانحياز» في صحيفة الأيام بتاريخ 2001/10/23، ومقال آخر في صحيفة الأيام بالتاريخ نفسه في 2001/10/23 بقلم سامر أبو هواش بعنوان : «متوغّل في الذات وفي الأمكنة باحث عن الجذور والتواريخ». وصدر مقال آخر في صفحة المكتبة في جريدة الأيام عن روايته : «عند منعطف النهر» دون توقيع بتاريخ 2001/10/27، وبعنوان : «عند منعطف النهر أشهر روايات الفائز بنوبل للآداب هذا العام»، وآخر هذه المقالات كان بقلم حسن خضر عن روايته : «نصف حياة» بعنوان : «صدق الراوي ولا تصدق الرواية» في الأيام بتاريخ 2002/5/18. هذا بالإضافة إلى ملفّ

عن الكاتب صدر بالعدد (70 – 71) شتاء / ربيع 2002 من مجلــة «الكرمــل» الفلسطينيــة، من صفحــة (290 – 299)، وبعنوان نقدي : «نايبــول : سولجنتســين العالــم الثالــث» بتوقيع (ص. ح) والمفروض هي الأحرف الأولى من اسم الكاتب صبحي حديدي.

الرواية التي بين أيدينا اليوم هي، أيضاً : «نصف حياة» إلى جانب روايته الأولى «المدلك الصوفي» وثلاثة كتب أخرى غير قصصية هي : «فقدان الدورادو» و «الرحلة الوسطى» و «رسائل بين أب وابنه». سيكون التركيز على رواية «نصف حياة» مع الاستفادة من الكتابات الأخرى المذكورة حيث كان ذلك ضرورياً ومفيداً لتوضيح الهدف.

يقول النقاد : إنّ رواية «نصف حياة» أشبه بنصف أو بشبه سيرة ذاتية للكاتب. قد يكون هذا صحيحاً أو قد يكون مبالغاً فيه. هناك الكثير من العوامل في هذه الرواية تنطبق على نايبول كما تنطبق على بطله ويلي سومرست شاندران. ولكن في جميع روايات نايبول هناك دائماً «الأنا» موجودة فيها، هناك دائماً جزء من شخصيته أو من تجربته الحياتية وسيرته في الرواية. وحركة شخصياته تتقاطع مع حركته أو تسير معها بشكل متواز ثم تبتعد عنها. وهذا ما سنراه لاحقاً.

ما يلفت النظر في «نصف حياة» حتى قبل البدء بقراءتها هو شكل تقسيمات الفصول فيها. فالرواية تنقسم إلى ثلاثة فصول غير متساوية في الحجم، الفصــل الأول عــدد صفحاتــه (36) صفحــة وهــو بعنوان : «زيارة من سومرست موم»، والفصل الثاني وعدد صفحاته (78) صفحة وهو بعنوان : «الفصل الأول»، أما الفصل الثالث والأخير وهو الأطول في الرواية فعدد صفحاتــه (114) صفحــة وهو بعنوان : «ترجمة ثانية».

ويبدو لي أنّ هذه الأحجام تتناسب مع الأحداث وأهميتها في حياة البطل. وهناك ملاحظة في بداية الرواية تشبه إلى حدّ كبير ما يضعه الكتاب عادة كإهداء. تقول الملاحظة : «هذا الكتاب هو اختراع. لا يعالج تماماً البلدان والحقب والأوضاع التي يبدو أنه يصفها». وربما يعرف نايبول أنّ هناك إغراء للناقد بربط أحداث روايته بأحداث سيرته الشخصية. فاقتضى منه ذلك التنويه. ومع ذلك نقول : إنّ هناك بالفعل إغراء في إسقاط أحداث الرواية على شخصية أو سيرة الكاتب.

فهذه الرواية تجري في أزمان وتقص أحداثاً معروفة وقعت تاريخياً. الأوضاع في الهند. الانقسام الطبقي بين الفئات الاجتماعية فيها. النضال من أجل استقلال الهند. حرب السويس، التظاهرات العرقية في بريطانيا في منتصف الخمسينيات، الاستعمار البرتغالي في موزمبيق، وانتصار حركة المقاومة «فريليمو» وتأثير ذلك على المستعمرين البرتغاليين أو ما يمكن تسميتهم «بالمولاتو» أي أنصاف البرتغاليين وأنصاف الأفارقة، وفي الخلفية، أيضاً، توجد أميركا اللاتينية وتشي غيفارا، وثورة كوبا عبر إحدى شخصيات الرواية. لكن هذه الأحداث والوقائع لا تقص كأحداث تاريخية وإنّما لعلاقتها ببطل الرواية «ويلي سومرست شاندران».

الفصل الأول في الرواية يعالج البدايات، يطلّ علينا «ويلي كولد» في مدرسة تبشيرية كندية في الهند. ولد منزعج من أترابه لأنهم يسخرون من اسمه الأوسط : سومرست. يسأل والده عن السبب. يقصّ الوالد

تاريخه وتاريخ عائلته لعلّ الولد يفهم الوضع الاجتماعي والديني الذي هو فيه. العائلة أي الوالد والجد، هم من طبقة البراهما وهي أعلى طبقة في المجتمع الهندي. هم رهبان، يعيشون في المعابد، يتنقلون بين حياة العوز، والحياة كموظفين لدى المهراجا، والحياة في المعابد، يأخذون منها ما هو أفضل لهم مالياً أو ما يحميهم اجتماعياً.

والد ويلي يروي الفصل الأول لابنه. يعود الوالد إلى المعبد هروباً من الزواج من ابنة مدير المدرسة. والأهم أنّه يعود إلى المعبد هروباً من «فضيحة» اجتماعية ستلاحقه من طبقته ومن طبقة المنبوذين. الوالد كان ممتلئاً بحب التغيير وروح التضحية من أجل الهند، وهو ما كان ينادي به المهاتما غاندي. أراد هذا الشاب، أي الوالد، أن يطبق ذلك بنفسه : أحرق كتب الجامعة حيث كان يدرس الأدب الإنكليزي وتمرّد على العادات، فاختار زميلة له في الجامعة ليصادقها وكانت هذه من طبقة «المنبوذين» . ولكي تزداد الأمور سوءاً في علاقته مع طبقته، لم تكن هذه البنت جميلة. بالواقع كانت بشعة جداً. وتقول العادات الطبقية بما أنّه كان يجالس هذه البنت، فإنّ المجتمع يعتبرها خطيبته وعليه بالتالي أن يتزوجها . وإن لم يفعل سيلاحقه عمها وهو أحد نشطاء التظاهرات ضد الاستعمار، وإن فعل أي أن تزوجها، سينبذ من طبقته. لا يستطيع العودة إليها : فهرب إلى المعبد ليصبح ناسكاً وراهباً ومتعبداً.

في المعبد، يصبح مشهوراً لدى عامة الناس ولدى زوّار الهند. يؤمّه عامة الناس ليستفيدوا من «علمه» و«بركته»، ويزوره الأجانب للتحدث إليه لأنه كان «شيئاً» غرائبياً. فشكّل هذا الوضع حماية له من طبقته ومن طبقتها . ومن الزوار الذين زاروه وفتحوا حوارات معه كان الكاتب البريطاني «سومرست موم». يتزوّج الراهب صديقته وينجب منها ولد هو الراوي ويلي وبنت هي ساروجيني. بعد طفولة تميزت بالصراع مع النفس والوجود والهوية الشخصية، يقرّر ويلي أنّه لا يريد الدراسة في المدرسة التبشيرية الكندية، ويريد الخروج من الهند والسفر إلى لندن للدراسة فيها.

في الفصل الثاني تنتقل الرواية إلى ويلي حيث يقص هو سيرة حياته في لندن وانضمامه إلى كلية التربية بعد أن دبّر له أحد معارف والده البريطانيين منحة لذلك. يبقى في لندن حوالي ثلاث سنوات في منتصف الخمسينيات، يطلع فيها على أنماط متنوعة من الحياة في العاصمة البريطانية تختلف اختلافاً كبيراً عن نمط حياته الهندوسية. ويتعرف إلى أناس، بريطانيين وغير بريطانيين، يختلفون تماماً عن الناس الذين عرفهم في الهند. ويشارك في أمور حياتية لم يكن يجرؤ أو حتى لم يكن يتصوّر، أن بإمكانه أن يقوم بها في الهند. يعيش تجربة الجنس والحياة البوهيمية التي كانت رائجة في خمسينيات القرن الماضي. وهناك، أيضاً، يدخل عالم الكتابة والصحافة من خلال الإذاعة وكتابة القصة. في لندن يتعرف على النساء، ويكتشف عدم خبرته وعدم كفاءته بممارسة الحب والجنس معاً. ولهذا تتطور عنده عادة ممارسة الجنس مع صديقات أصدقائه ومعارفه. وتصبح هذه سمة من سماته. تؤرقه بداية ثم يتعود عليها . فهو خجل لا يستطيع أن يبدأ علاقة صداقة مع أي أنثى. سُلّم قيمه المورثة لا يسمح له بذلك.

في الفصل الثالث، وهو أطول الفصول، يعالج تطور الأحداث في المستعمرة البرتغالية التي لا يسميها

نايبول ولكن القارئ يعرف أنها موزمبيق. طوال الفصل هذا يُشير إلى طول الفترة الزمنية التي قضاها هناك وإلى نضوجه الجنسي والنفسي المتلازم مع القلق الدائم حول المستقبل، وماذا يمكنه أن يفعل بواقعه وبمستقبله.

في المستعمرة البرتغالية في أفريقيا، يعيش في كنف معشوقته، حبيبته، زوجته، آنا، الوارثة لمزرعة كبيرة عن جدها. وآنا هذه نصف برتغالية ونصف أفريقية، فهي تحمل دماً أفريقياً، فجدها البرتغالي كان متزوجاً من جدتها الأفريقية السوداء. وهذا المجتمع «النصف النصف» هو العماد الذي، كما يبدو من الرواية، كان الاستعمار البرتغالي يعتمد عليه في التوسع والسيطرة والاستعمار في المستعمرات. وهذا المجتمع كان يشكل، على ما يبدو، أيضاً، الطبقة «الوسطى» عملياً لأنهم يعتبرون برتغاليين من الصف الثاني. فالصف الأول هم البرتغاليون «الأقحاح»، المستعمرون القادمون من المتربول، المركز الكولونيالي.

آنا، أو علاقة ويلي بها، تشكِّل محور الجزء الثالث والأخير من الفصل الثاني والفصل الثالث بأكمله. تكون في لندن تدرس هناك. تقرأ مجموعة القصص التي أصدرها ويلي هناك. تتفاعل معها، وترى أنّ القصص تمثلها وتتماثل وتتماهى معها. تكتب له، يدعوها، يقبلها، تصبح صديقته ثم حبيبته، تحاوره في أمور الحياة والوجود، الحاضر والمستقبل. يتعلّق بها أكثر فأكثر.

تنتهي دراسته، يتخرج، عليه مغادرة الكلية، لا يعرف أين يذهب. لا يريد العودة إلى الهند لأنها تذكره فقط، بالحزن والمرارة. يطلب منها أن يعود معها إلى بلادها في المستعمرة البرتغالية. يعودان إلى مزرعتها، يتأقلم في بداية الأمر. يعيش في كنفها، عشيقاً ثم زوجاً. مع مرور الأيام، ينتهي الانجذاب الجنسي بينهما. كل منهما يعيش منفرداً كأصدقاء في البيت. يبدأ بتجريب الحياة الجنسية الأخرى في البارات وبيوت الدعارة الأفريقية. يكتشف أنّه بدأ يكذب على آنا ويخونها جنسياً. تكشف أمره. تتحمل ذلك. لا يتشاجران، ينام مع صديقاتها وزوجات معارفه. يطلعنا على مجتمع النصف نصف البرتغالي، عن الحياة في ذلك المجتمع، عن قصصه الصغيرة والسطحية والتافهة وبانشغالاتهم اليومية.

فجأة يدقّ ناقوس الخطر. تمتلئ البلد عسكراً من بلاد الاستعمار لمحاربة العدو أي حركة التحرير الشعبية لأهل البلد الأصليين، للأفارقة. الحركة والثوار لا اسم لهم عند نايبول ولا عند الراوي ويلي. لكن القارئ يعرف أنهم حركة «فريليمو»، بقيادة «سامورا ماشيل»، تنتصر الثورة ويرحل المستعمرون. يتهاوى هذا المجتمع النصف نصف بسرعة لأنّه نصف برتغالي ونصف أفريقي. تضيع عندهم البوصلة. معظمهم ينتهي إلى الرحيل. القلّة منهم تبقى. وينتهي هو الراوي، ويلي، مهاجراً إلى برلين، ليعيش مرّة أخرى في كنف وحماية امرأة، ولكن هذه المرة كانت المرأة شقيقته «ساروجيني»، البشعة التي كان يخاف عليها.

لم يعُد يتحمل آنا. انتهت علاقته بها نفسياً بعد أن كانت قد انتهت جنسياً منذ فترة طويلة. والمناسبة بسيطة جداً لكن مؤلمة. يتزحلق على درج البيت الذي يقطنه مع آنا في المزرعة. يغيب عن الوعي. يستيقظ في المستشفى العسكري التابع للثورة. يفتح عينيه على مرآى آنا تقف إلى جانبه. يبلغها أنه لا يريدها، وسيطلقها وسيغادر.

لقد كانت هذه الصدمة من الوقوع هي اللحظة التي أراد بها الكاتب، نايبول، أن يجعل راويه، ويلي، يستيقظ من غيبوبة الوجود. الراوي، مثل الكاتب، هندي مهاجر. ومثله، يحمل جنسية البلاد التي هاجر إليها. ومثله لا يشعر بالاستقرار النفسي أو العاطفي أو القومي أو الوطني في تلك البلاد. وهما محكومان بالعرق والبشرة. لذلك نرى أنّ الشخصية الرئيسية، أو البطل، في روايات نايبول، هي شخصية الهندي، وبالتحديد الهندي المهاجر. وقد يكون هذا الهندي هندوسياً أو مسلماً. فهذه هي تجربة نايبول وبيئته وهو ما يحيط به. هذا ما نراه في روايته الأولى «المدلك الصوفي» ، وهو ما نراه في روايته الأشهر : «بيت للسيد بسواس» ، وفي سيرته الذاتية التي كتبها على شكل رواية : «عند منعطف النهر»، وفي هذه الرواية «نصف حياة» . البطل هندي، هندوسي، من طبقة البراهما أي الطبقة الدينية العليا. أمّا بطل : «عند منعطف النهر»، هو «سالم» المهاجر الهندي المسلم. وويلي، مثله، يدرس في الجامعة في بريطانيا، ومثله لا يريد العودة إلى بلده الأصلي، ومثله يتخبّط بمشاكله الشخصية، الوحدة والفساد، ومثله يقوم بأعمال متقطعة في الإذاعة، ومثله يبقى عنده الأمل بتحقيق شيء كبير.

لهذا نقول : إنّ التجربة الشخصية للكاتب تطلّ برأسها في عدة أشكال في روايات نايبول ولكنها لا تطلّ على أنها أمور متكرّرة. عندما سُئل نايبول أن شخصية السيد بسواس تشبه إلى حدّ كبير شخصية والده لم ينكر الكاتب ذلك وإنّما قال : «إنها مبنية عليه، لكنها لا تستطيع أن تكون الرجل الحقيقي».

يضاف إلى ذلك أنّ هناك عناصر مشتركة في روايات نايبول نجدها فيها إلى جانب العناصر المشتركة في شخصية «البطل»، مثلاً، توجد باستمرار شخصية الصوفي (*mystic*) في رواياته وهذا جزء من التراث الديني الهندوسي. كذلك، هناك إشارة باستمرار إلى أميركا اللاتينية، وخاصة منطقة الكاريبي منها، فهي البيئة التي نشأ فيها الكاتب. وهناك، أيضاً، تلميح عابر سلبي للإسلام على شكل جملة أو قول، أو إشارة.

ومما لا شك فيه، أن كون السيد نايبول، هندياً مهاجراً، ولد وعاش في بيئة غير بيئته الهندية، إن كان في ترينيداد، مسقط رأسه، أو في بريطانيا بلده المكتسب، وبالرغم من وجود جالية هندية، وكتب في لغة غير لغته الأصلية، بل تفوق في تلك اللغة، قد انعكس على شخصياته من حيث الاستقرار الاجتماعي والنفسي، فالبطل، عند نايبول، قلق، ليس له مستقر، يتنقل من بيئة إلى أخرى، ومن موقف إلى آخر دون شعور بالذنب. البطل في «المدلك الصوفي» يتحوّل من مناضل ومدافع عن حقوق الجماهير في ترينيداد إلى عميل للقوى الاستعمارية، مرضي عنه بعد أن كان مغضوباً عليه. حتى أنه يقلب اسمه من «غانيش رامسومير» الهندي إلى السير «رامزي موير» البريطاني.

البطل لدى نايبول يشعر بالغربة ويعيشها، ليس فقط ، في مجتمعه الجديد، بل، أيضاً، في مجتمعه القديم. ينتقل إلى الجديد فلا يقبله، يتذكر المجتمع القديم. ولكنه لا يستطيع العودة إليه لما يختزنه ذلك المجتمع من أعراف وتقاليد وسلوكيات أصبحت غير مقبولة لديه، لا بل يتمرد عليها، فيهرب منها إلى المجتمع الجديد، لكنه لا يجد ما يملأ به الشعور بالفراغ في المجتمع الجديد. هذا الارتباك والقلق بين أنماط السلوكيات الموروثة والمكتسبة يقود إلى وصف كتابات نايبول على إنها كتابات عن الغربة والاغتراب، وهو ما تعبر

عنه، وإنها تميل إلى السوداوية التي هي أقرب إلى سوداوية الكاتب جوزيف كونراد الذي تأثر به نايبول كثيراً. فكل منهما كتب وأبدع في اللغة الانكليزية. وكل منها ليس إنكليزياً. الأول بولندي والثاني هندي. (ويبدو أن جوزيف كونراد ترك تأثيره على كاتب آخر مهم يكتب باللغة الإنكليزية في زماننا، هو الدكتور إدوارد سعيد. وهي مفارقة ملفتة للنظر وليس الهدف منها مقارنة إدوارد بـ «نايبول»، كل منهما له عالمه الخاص به).

ويلي سومرست شاندران، بطل رواية «نصف حياة» يعيش هذا القلق والاغتراب والسوداوية في الوقت نفسه وهو طفل يدرس في المدرسة التبشيرية في الهند. لقد هرب والده من المجتمع إلى المعبد، هرب من ظلم المجتمع. أما ويلي فهرب أو هاجر من بلده الأصلي إلى بريطانيا لأنه أراد أن يهرب من هذا المجتمع القديم الذي لم يعرف كيف يتأقلم معه بسبب هذه العلاقة الشائكة والمعقدة الناجمة عن زواج براهمي من امرأة من طبقة المنبوذين – أمه –.

المجتمع الطبقي مغلق في الهند. وحركة المواصلات فيه أفقية أو عامودية باتجاه واحد : إلى الأسفل. لا يوجد حركة أو انتقال بين الطبقات. ما دامت الأم من طبقة «المنبوذين» فهو محكوم أن يبقى في مجتمع «المنبوذين». عليه أن يذهب إلى مدارسهم ويبقى في مجتمعهم. ما يخيفه ويحزنه ليس وضعه هو كولد أو كشاب في هكذا مجتمع، وإنّما وضع أخته التي لا تستطيع أن تتزوج إلاّ من طبقة المنبوذين ولا أمل لها بالخلاص من ذلك إلا بما أسماه والدها «الزواج الدولي» أي الزواج من شخص أجنبي.

هذا القلق من الغربة لا نجده فقط، عند نايبول في وصفه للتمرد الداخلي في طبقة أو مجتمع ما. إنّه ينتقل معه في نقده للعالم القديم الذي يغادره. نجد هذا الاتجاه في رواياته كما في كتاباته الأخرى التاريخية أو الرحلات أو التحقيقات الصحفية. كلّ هذه الروايات والكتابات تحدث على خلفية مهمة : النظام الاستعماري الموشك على الانهيار في عالم الكاتب – إن كان في المجتمع في الهند أو المجتمع في الكاريبي أو المجتمع في أفريقيا. في هذه الكتابات يكتب عن انطباعاته وتجاربه في هذه الدول والمجتمعات وكيف شاهد تلك الفوضى الثقافية الناجمة عن التأثيرات المدمرة للإمبريالية على شعوب العالم الثالث. وقد تمثّل هذا التأثير السلبي بالاغتراب الثقافي والاعتقاد بأن شعوب العالم الثالث يمكنها أن تكون حرة ومستقلة أنه «سراب الحرية». وهذا لا يجعل من نايبول كاتباً ثورياً أو مناضلاً. هدفه هو الحثّ على إعادة التفكير فقط.

وفي الواقع، فإنّ رواية «نصف حياة» تحدث في البيئات الثلاث : في الهند، في لندن، وهي عاصمة العالم الإمبريالي في النصف الأول من القرن الماضي، وفي إفريقيا. ويجنح الكاتب إلى أميركا اللاتينية حينما يدخلها عبر شخصية بيرسي كاتو. يكتب نايبول بكثافة وانشغال عن البيئة الاستعمارية والعلاقات الاستعمارية التي خلقها الاستعمار في عقل الشعوب المستعمرة دون تمكينها من الخروج من ظروف التخلف الاجتماعي والاقتصادي والرقي إلى مستوى الحياة في بلاد المركز أو المتربول الاستعماري.

وبالواقع كل شخصيات رواياته تراجيدية بهذا المعنى إذا فكّرنا بما آلت إليه أحوالها في نهاية كل رواية منها. فهو يجعلها ترى التقدم والتوهم بالحصول على الحرية ولكنه لا يمكّنها منه. لذلك تصاب بالقلق والشعور بالوحدة والعذاب وبالاغتراب السياسي والثقافي في آن .

هذه العلاقة المعقدة بين الاستعمار من جهة والشعوب والبلدان الخاضعة للاستعمار من جهة ثانية تصبح واضحة المعالم وبارزة في التعبيرات والمعايير في كتبه الأخرى غير القصصية : المقابلات والرحلات والكتب التاريخية. في «فقدان الدورادو» يقصّ وحشية الاستعمار وأساليبه اللاإنسانية واستباحته للشعوب، بشراً وتراثاً وحضارة وأملاً، وحياة عادية.

تكتمل سيرة الاغتراب لدى الراوي، ويلي شاندران، في «نصف حياة» لأنها تدور دورة كاملة. يبدأ الاغتراب باسمه لأنه يحمل في وسطه اسم «سومرست» الذي يجعل أترابه يسخرون منه. ثم يأتي اغترابه من وضع عائلته عندما أخذ يدرك ما معنى أن يكون والده براهمانياً ووالدته من المنبوذين. هذا يدفعه إلى الاغتراب من الوطن بمعناه المجازي والحقيقي. يغادر أو يهرب إلى لندن، بذريعة الدراسة، ليجد أمامه، حياة تعجبه ولا تعجبه في آن. غريبة عنه لأنه هندي، وغرائبية بالنسبة له لأنّه، أيضاً، هندي لم يتعود على هذا الانفتاح الاجتماعي. ينغمس في حياة لندن البوهيمية في الخمسينيات ويقيم علاقات قلقة غير واثقة مع النساء، وهو الذي لم يمسس امرأة من قبل، لا يعرف ماذا يعمل، لم يعلمه أحد ذلك. عليه أن يتخبط في هذه العلاقة. فيختار أهونها : إقامة علاقات مع النساء اللاتي تعرف إليهن عن طريق أصدقائه. اعتاد على ذلك. إنّه أمر سهل. ثم ينتقل للعيش في كنف محبوبته عشيقته، زوجته، آنا، في بيتها في المستعمرة البرتغالية في إفريقيا.

«نصف حياة» تعني الحياة التي تعاش في ظلّ أو كنف أناس آخرين. إنها حياة الركض وراء الآخرين والاختباء خلفهم. يهرب من زوجته آنا، من إفريقيا إلى برلين، ليلجأ إلى شقيقته هناك. تكتمل الاتكالية والاعتماد على الآخرين، وهو ما كان يحاول أن يهرب منه طوال تجربته السابقة، ويغوص بالاغتراب دون أن يشعر.

وقصته مع شقيقته ساروجيني تدلّ على ارتباطه بالماضي وعلى تحلّله منه في آن . كان يشفق عليها دائماً في مخيلته لأنها نتاج حب بين رجل براهماني وامرأة من المنبوذين، فهي محرومة أصلاً. إضافة إلى ذلك، إنها أنثى وإنها بشعة. ليست مثله ذكراً يمكنه الهرب إن شاء إلى الخارج. وقد شاء. لكن الأقدار، تبتسم لساروجيني، مع أنّ هروبها إلى الخارج أو خلاصها من وضعها جاء في سن الزواج، إلاّ أنّها كانت أكثر استقراراً منه، فالزواج الدولي، كما وصفه والدها، قادها مع زوجها الألماني إلى ألمانيا حيث عاشت تجارب الحياة هناك بشكل متفاعل وقوي. ولأنّ زوجها كان مخرجاً سينمائياً، زارت معه بقاعاً شتّى من المعمورة وتعرّفت إلى قادة كثيرين، منهم كاسترو وتشي غيفارا، ويكتشف ويلي إنها كانت أغنى منه في تجربتها مع الجنس الآخر.

أما هو فبقي حبيس حياته البوهيمية في لندن، ثم نزيل دارة زوجته البرتغالية الأفريقية في المستعمرة، وأخته هي التي أنقذته من ضياعه الأفريقي عندما قرّر ترك زوجته. ولأخته يقص روايته مع زوجته آنا.

هنا في برلين، تنتهي الرواية وهو في سن (41) عاماً. ولكنها تبقى مفتوحة على كل الاحتمالات وهو ما يميّزها عن قصص وروايات الاغتراب الأخرى. تبقى مفتوحة على الأمل أو على الأقل على الصراع من

أجل الاستمرار بالوجود. أخته تستمع إليه ولا نعرف ماذا حلّ بها. لا ذكر لوالده أو لوالدته منذ أن أعلمه والده بخبر زواج أخته. آنا تبقى في المستعمرة لا نعرف هل تأقلمت مع الوضع الجديد أم رفضته وغادرت. لا ندري حتى إن كانت بكت على فراقه.

نعرف فقط، أنّه يريد أن يبدأ من جديد، أن لا يختبئ وراء أحد. في آخر حوار له مع آنا يقول لها إنّه تعب من أن يعيش حياتها وإنّه حتى لو سافر معها إلى البرتغال، وسمحت له السلطات البرتغالية بالدخول فإنّ الحياة فيها ستكون حياتها هي أي أنّ عليه أن يتأقلم مع حياتها. يقول لها : «لقد اختبأت كثيراً». وتردّ عليه آنا بجواب يعبّر، أيضاً، عن ضياعها هي وعن غربتها وهروبها واختباءها وقلقها : «ربما، لم تكن حياتي، أيضاً» التي قضتها والتي ستنتظرها.

تتميز كتابات نايبول بدقّة الوصف والتفاصيل الصغيرة المرئية والحسية. إنّه ينقل القارئ إلى عالمه الروائي والوصفي، حيث يعيش مع الراوي في غرفته أو زنزانته أو حتى أن يشاركه الحديث مع محبوبته. وهذه ميزة تميّزه عن كتاب الاغتراب الآخرين الذين أسسوا للحركة الوجودية في القرن الماضي من أمثال كولن ويلسون وكافكا والبير كامو.

فكتاباتهم تبقى دون أمل. وتفتقر إلى البسمة وتصبح الحياة معها مظلمة لا مهرب منها سوى الانتحار أو الموت أو الانتهاء أو الانهيار. وتقع عظمة هذا الأدب الوجودي في هذه السقطة الكبيرة التي يواجهها الإنسان وهو يتصارع مع الحياة على لحظة الوجود. أما نايبول فيفترق عنهم في قضية التصارع مع الحياة. ربما يرجع ذلك إلى تجربته الشخصية التي تعلم منها الكثير وجعلته يغير نظرته إلى الحياة. في كتابه الأخير : «رسائل بين أب وابنه» عن فترة دراسته في أوكسفورد/ بريطانيا من أواخر 1949 حتى منتصف 1954 نعرف أنه أصيب بانهيار عصبي وبالكآبة في 1952. وهو يعرف سبب ذلك : الوحدة وقلة المحبة و «الحنيّة»، الكلمة التي يستعملها هي «*affection*» (الرسائل : ص196)، من جرّاء الابتعاد عن منزل عائلته والعيش في مدينة خالية من العاطفة مثل مدينة أوكسفورد. ويقول : إنّ سبب مرضه هو حنينه للبيت «*homesick*» وإنّه خائف جداً من العيش. (الرسائل : ص203) يجمع قواه ويتحدى المرض والحالة النفسية. فلديه طموح بالنجاح. يتغلب على هذه الحالة وعلى المرض ويشفى. ويتحدث عن مرضه بأريحية كبيرة تشكّل جزءاً من العلاج إلى جانب العلاج الذي تلقاه من طبيبه أو مرشده النفسي (*psychologist*) (الرسائل : ص221).

هذا الانتصار على مرض الوحدة والكآبة وجد طريقه إلى كتاباته وتعامله مع بطله أو شخصياته الروائية. نايبول يشرك القارئ في أحداث روايته ومواقف شخصياته. يمنع القارئ من الانعزال مع أنّه يكتب عن الانعزال والغربة والهروب والاختباء. لا يسمح للقارئ أن يغلف نفسه بسترة واقية أو أن يختبئ وراء جدارٍ واقٍ.

وفي كتاباته يستعمل، أيضاً، القصة الخيالية أو السيرة الذاتية أو التجربة الشخصية والتوثيق بشكل متداخل، ما يجعل منها عملاً متكاملاً وليس متداخلاً أو متعارضاً، ويستخدم هذا الأسلوب في رواياته

كما في كتاباته الأخرى. في «فقدان الدورادو» يحول الكاتب الحدث التاريخي حول أهوال وفظائع الاستعمار الإسباني والفرنسي والبريطاني في ترينيداد من قراءة مجردة للوثائق التاريخية إلى معالجة، بل رواية تاريخية تتضمن مقطوعات طويلة، ربما فصولاً أو أجزاء من فصول، في فنّ الرواية أو القصة القصيرة أو الحوار الروائي أو المسرحي بين شخصيات الاستعمار وشخصيات المواطنين العاديين العاجزين (وكأنّ الكتاب وضع لانتاج مسلسل تاريخي للتلفزيون أو للسينما).

«نصف حياة» هي سيرة إنسانية مثلها مثل باقي أعمال نايبول. قد تكون عنه أو قد تكون مستمدة من تاريخه الشخصي أو قد لا تكون. لكنها بالتأكيد متأثرة بتجاربه الشخصية. إنّها قصة حياة عن طريقة التفكير وطريقة السلوك المجتمعي والاجتماعي، كيف يعيش الناس وكيف يتصرّفون، كيف يلبسون وماذا يلبسون، ما هي همومهم الصغيرة والكبيرة؟ إنّها قصة عن الخلافات والنزاعات وعن الغيرة والحسد بين أبناء العائلة، وأبناء الجالية وأبناء البلد، إنّها قصة الصراع بين «الأنا» و«الآخر». ومهما يكن من أمر، فإنّ كل ذلك يزيدها بُعداً إنسانياً فيه الكثير من قوة التعبير، وحميمية الأسلوب، وعمق الموضوع.

* ناقد ومترجم فلسطيني يقيم في أريحا .